المُهمةُ الدبلوماسيةُ والعَقدُ في كتابِ الأميرِ: مسالكُ أبوابِ الحديد
–دراسة تحليلية–

The Diplomatic Mission and the Contract in El emir book: Messalik Abwab El hadid - Analytic study-

د. سامي الوافي

قسم اللغة والأدب العربي –كلية الآداب واللغات

جامعة أم البواقي– الجزائر

البريد الإلكتروني: louafi_2010@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2020/08/27 – تاريخ القبول: 2020/09/28 – تاريخ النشر: 2022/01/05

الملخص: المهمةُ الدبلوماسيةُ والعَقدُ في كتابِ الأميرِ: مسالكُ أبوابِ الحديد، مقالٌ تناولت فيهِ طبيعةَ الروايةِ التاريخيةِ، من زاويةِ المهمةُ الدبلوماسيةُ والعَقدُ كمؤشّرٍ تأويلي، لتجسُّدها كعمل سردي، طَمَحَ إلى إعادَةِ بناءِ حِقْبةٍ من الماضي، بطريقة تخييلية، تداخل فيها الواقعي مع المتخيل، اعتمادا على مادة تاريخية تشكلت بواسطةِ السردِ، اضطلع من خلالها المبدعُ في ابتكارِ حُبكةٍ للمادة التاريخية، بتحويلها إلى مادة سردية، كنصّ كتاب الأمير، الذي يُعتبر رواية أطروحة عابرة للثقافات، تدعو لحوار الحضارات وتحرّضُ على التعايش السلمي بين الشعوب والأديان.

الكلمات المفتاحية: المهمة الدبلوماسية، العقد، الرواية التاريخية، الهدنة، الأمير عبد القادر.

The Diplomatic Mission and the Contract in El emir book: Messalik Abwab El hadid - Analytic study-

Abstract:
The Diplomatic Mission and the Contract in El emir book: Messalik Abwab El hadid novel , is an article in which I dealt with the nature of the historical novel, from the angle of the diplomatic mission and the contract as an explanatory indicator to embody it as a narrative work aspires to rebuild a past era in a fictional way where the real interferes with the imaginary, depending on the historical data which is formed and gathered via narrating, through which the writer creates a plot for the historical data and transforms it into a narrative material, like "Kitab el-emir" which is considered as a cross-cultures novel calls for the dialogue of civilizations and incite peaceful coexistence between peoples and religions.

Keywords: The diplomatic mission, The contract, The historical novel, Armistice, Prince Abd El kadir.

المؤلف المرسل: سامي الوافي، **الإيميل:** louafi_2010@yahoo.com

تمهيد:

اعتمد الروائي الجزائري واسيني الأعرج في تأليف نصّهِ الروائي: كتابُ الأميرِن على السردِ التاريخي المُتشابكِ، الميَّالِ إلى قولِ الحقيقةِ وسردِ الأحداثِ، التي بإمكاننا التحقُّق من مصداقيتها ومطابقتها للوقائعِ، بتعامله مع المادةِ التاريخيةِ إبداعيًا بطريقةٍ مختلفة، بناءً على تحديدِ مواقفٍ تبناهَا، انطلاقًا من حقبٍ زمنية معينة ومحدّدة، وبطريقةٍ يستشعرُ معها القارئ الإحساسَ نفسهُ، حين يرى المسافةَ الزمانية المُجسَّدة بين زمنِ القصّةِ في الروايةِ والعصرِ الذي يعيشُ فيه المبدعُ، ليُصبحَ معهُ منتوجًا إبداعيًا، تحقّقَ مصيرهُ التأويلي، كجزءٍ من آليتهِ التكوينيةِ.

تحدثَ المبدعُ في نصهِ عن الأميرِ عبد القادرِ المقاومِ، وعن فرنسا الاستعمارية، من خلالِ صورٍ مرتبطة بماضيه (الأمير عبد القادر)، وماضيها (فرنسا) باسترجاع الزمن، مُعتمدًا على محركٍ ومحرضٍ للأحداثِ، هو: الوعي التاريخي، انطلاقًا من هيمنةِ الرؤيةِ والمعرفةِ، والرؤيةُ كانت مُحفّزًا وباعثًا على المعرفةِ، ومعالجتنا للمتن الروائي ستتجهُ نحو علاقةِ الأنا بالآخر، في سياقٍ تاريخي مشحون بالصراعِ منذ العام 1830م، تاريخ احتلال الجزائر، حتى 1847م، وما ترتَّبَ عنهُ من توتراتٍ بين الطرفينِ.

1- **العنوانُ كمؤشرٍ دليليّ:**

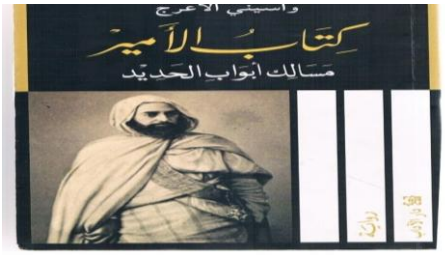

يرتبطُ عنوانُ روايةِ: **كتابُ الأميرِ: مسالكُ أبوابِ الحديدِ** بمدارٍ سياقي يحتاجُ إلى تأويلٍ، موضوعهُ المباشرُ: **الأمير عبد القادر بن مُحي الدين الجزائري الحسني**، الثائرُ المُكافحُ ضدَّ الغزو الفرنسي للجزائر (منطقة الغرب)، والأسير لدى السلطات الفرنسية، كما يضطلعُ النصُّ بمهمةٍ دبلوماسية تجسدت في المحاولاتِ الحثيثةِ لتحريره من أسره، هذه المحاولاتُ سيقومُ بها أُسقفُ الجزائرِ الأسبقِ: **القسُّ مونسينيور ديبوش (Monseigneur Dupuch)**، باعتباره مؤشّرًا في العنوان على الموضوعِ الذي يحيلُ عليه: **(مسالكُ أبوابِ الحديدِ)**.

ومن حيث تأليفِ الدلائل اللسانية نجدُ أنّ العنوانين: **(الرئيسي: كتابُ الأميرِ والفرعي: مسالكُ أبوابِ الحديدِ)** يستثمران التركيب الاسمي المُقتصدَ، باستبعادِ أيَّ ذكرٍ للمُركّبِ الفعلي، فانتقاءُ الأدواتِ التأشيرية في العنوانينِ، دعَمَ منحاهُمَا الموضوعاتي كثيرا بمعنيين:

- **المعنى الظرفي:** ***كتابُ الأميرِ:*** "رواية عن الأمير عبد القادر لا تقول التاريخ؛ لأنه ليس هاجسها، ولا تتقصى الأحداث والوقائع لاختبارها، فليس ذلك من مهامها الأساسية، تستند فقط على المادة التاريخية، وتدفع بها إلى قول ما لا يستطيعُ"[1].

- **المعنى التعليلي:** ***مسالكُ أبوابِ الحديدِ:*** "تستمعُ [الروايةُ] إلى أنينِ الناس وأفراحهم وانكساراتهم، إلى وقعِ خطى مونسينيور ديبوش قسّ الجزائر الكبير، وهو يركض باستماتة بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز"[2].

والتقاءُ العنوانينِ معًا حولَ وحدةٍ تركيبيةٍ هي: كتابُ الأميرِ: مسالكُ أبوابِ الحديدِ، تتَّخِذُ صورةَ دليلٍ حِملي مُؤَشِّري يُركّزُ الانتباهَ على موضوعٍ واحدٍ، يحتملُ شروطَ التوسعِ الدلالي: مقاومةُ الأميرِ / استسلامُه / أسْرُهُ ونفيهُ.

1-2- المهمةُ الدبلوماسيةُ كمؤشّرٍ:

سيطرَ خطابُ الذاكرة الجَمعية وأسئلتهُ المُلحّة على رؤيةِ مبدعِ النص الروائي، بتقديمهِ صورةً للآخرِ جاءت محكومةً في الغالبِ بالذاكرةِ و بالتاريخ، لتُعبّر عن صراعٍ مُعلنٍ، تؤكدهُ اللغةُ التي كُتبَت بها الروايةُ، فهناك مواجهة وتوتر بين الأنا والآخر، وفي علاقة الذاتِ بالوعي التاريخي أنتجَ لنا المبدعُ صورتين متعارضتين عن الآخر وفق جدلية: المرئي والمروي، الذي يدخلُ التاريخُ معهُ ضمنَ خانةِ الشروطِ القبلية المحددة للوضع البشري عامةً، فهو يجعلُ الإنسان محكوما بالزمن، ومشروطا به، كونه الكائن الوحيد المنفرد بالوعي بالزمن، لذا يستحيل عليه التخلي عن ماضيه والعيش دونه، لماذا؟

لتجسّده كمحَدّد لوجوده وهويته، ولنظرته لنفسه وللعالم الذي ينتمي إليه وللآخر، فالإنسان يصنع علاقة جدلية بين الماضي والحاضر، وهذا عبر وعيهِ بالزمن التاريخي كحافز لمواجهة الحاضر، وكتجربة ماضية يمكن استثمارها.

ليبدأ مع الافتتاحِ السردي في الروايةِ صوغ عديدِ المُعطياتِ التأشيرية (ملفوظاتٌ نصيّةٌ)، لتشتغلَ بوظيفةِ المُهمّةِ الدبلوماسية: (الدفاعُ عن الأميرِ الأسيرِ من قِبلِ القسّ ديبوش)، التي تُؤشِّر على: منفاه (باريس) / سِجنه (قلعة أمبواز)، كما يَحْضُرُ في النصِّ ذِكْرُ مُؤشِّراتٍ أخرى متعاونة فيما بينها، لتدعيمِ وتخصيصِ هذه الوظيفة الدبلوماسية:

1– «في انتظار القيامِ بما هو أهمّ، أعتقد أنّه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في نصرة الحقّ تُجاه هذا الرجل [يقصد الأمير عبد القادر]، وتبرئته من تهم خطيرة أُلصقت به زورا، وربما التسريع بإزالة الغموض وانقشاع الدكنة التي غلّفت وجه الحقيقة مدة طويلة»[3].
القسّ: مونسينيور ديبوش

2– «Si tous les trésors du monde étaient déposés à mes pieds et s´il m´était donné de choisir entre eux et ma liberté, je choisirai la liberté»[4]. ***L´Emir Abdelkader***

3– «أعود للتو من قصر أمبواز، قضيت أيامًا عديدة تحت سقفه المضياف، في حميمية نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر، أعتقد أنني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن أشهد بالحقّ من يكون هذا الرجل، للأسف أثناء عودتي إلى بوردو صادفت أناسا كثيرين أهلا لكل ثقة، لديهم فكرة غير دقيقة وناقصة عن هذا الرجل مما سيتسبّب حتما في تأخير تجلي الحقيقة إلى يوم غير معلوم، وأظنُّ صادقا لو أنّ كل الفرنسيين عرفوا عبد القادر مثلما أعرفه اليوم لأنصفوه في أقرب وقت، لهذا أتصوّر أنه من واجبي الإنساني أن أفعل شيئا في انتظار القيام بما هو أهم ...»[5]. ***القس: مونسينيور ديبوش***

4– «عبد القادر في قصر أمبواز.

مهدي إلى السيد لويس نابليون بونابرت، رئيس الجمهورية الفرنسية.
بقلم مونسينيور أنطوان أدولف ديبوش أسقف الجزائر السابق.
ثُمَّ في أسفل الصفحة كلمة بوردو مكتوبة بخط بارز وتحتها:
الطبع والليتوغرافيا ل: ح. فاي شارع سان كاترين، 139 أفريل 1849»[6]. ***الخادم: جون مويي***

5– «تَذكَّرَ مونسينيور أنَّ زيارته الأخيرة لقصر هنري الرابع في بو PAU لم تزدهُ إلاّ يقينا أنَّ الأمير مظلوم ومخذول بعمق، ومع ذلك فقد ظلَّ متزنا، لم يكن يبدو عليه أي قلق عندما حادثه عن الحرب والهدنة وبنودها، كانت المسافة بين ما كان يرويه وما كان يعيشهُ تزداد اتساعا، الذي أدهش مونسينيور وهو يتابع حركات الأمير وهو يتكلّم هو أنّ بريق عينيه ظلَّ مُتَّقدًا بقوة ومليئا بالحياة»[7]. ***الخادم: جون مويي***

6– «كُلُّ المحيط مغشوش أو خائف على مصالحه، ولم يبق أمامي إلاّ الرئيس، وكل الذين سألتهم أكّدوا لي أن نابليون يعرف جيدا ما معنى أن يعيش الإنسان منفيا ويدرك بعمق آلام

الإنسان وهو يواجه الكذبة القاسية ... ولهذا يجب أن أكاتب نابليون ليطلق سراح الأمير وأن أضع الحقيقة بين يديه مجردة من أي كذب أو زيف»[8]. ***القس: مونسينيور ديبوش***

7- «السنة الجديدة جاءت كما تجيء الأيام العادية لا تحمل أيَّ جديد، حاملة في أثرها كلّ الارتباكات التي لا تفضي إلاّ إلى مزيد من الخوف والخيبة، لا شيء في الأفق، وما كان يبدو مجرد سوء تفاهم صار حقيقة ثابتة، وتيقن الأمير أنّ الزمن الفاصل بينه وبين حريته زاد اتساعًا وقسوة، لا شيء أمامه إلاّ التأمل والتفكير في مراسلة الذين وعدوه خيرا بمناسبة حلول السنة الجديدة»[9]. ***السارد***

8- «أرأيت ماذا فعل هذا الرجلُ [يقصد الأمير] من أجل الجميع؟ يجب أن يخرج من هذا السجن المفروض عليه في هذا القصر المفرغ من كل حياة، لقد وعدوه وما عليهم إلاّ أن يفوا بوعودهم، الأمر لا يتعلق بشرف الأفراد ولكن بشرف أمّة بكاملها»[10]. ***القس: مونسينيور ديبوش***

9- «عندما وجد مونسينيور ديبوش نفسه في الشارع، كان المطر قد توقف نهائيا وبدأ الليل يهبط على المدينة ... شعرَ ببعض المرارة ولكنّه حاول أن يطمئن نفسه، صحيح أنّ الشيء الكثير لم يُقل أو بقي عالقا، ولكن على الأقل الحديث وصل إلى غرفة المنتخبين، وتم فتح ملف الأمير الذي ظلّ يخيف الغرفة والحكام وضباط الجيش الذين لم يغفروا للأمير صمته على سجناء سيدي إبراهيم وعين تموشنت»[11]. ***السارد***

10- «ومع ذلك فأنا أسعد مخلوق في الدنيا بكسر حاجز الصمت على الأمير»[12]. ***القس: مونسينيور ديبوش***

يُحدّدُ الملفوظُ النصّي الأوّلُ الإطارَ العامَ الذي تتدرجُ فيه مهمةُ القسِّ مونسينيور ديبوش، بالسعي الحثيثِ والسَّفرِ المستمرِّ لتحقيق هدف واحدٍ كرَّس له كلّ اهتمامه، وهو تحرير الأمير عبد القادر من أسره ومنفاه في قلعة: بو / أمبواز؛ لأن هذا العمل واجبٌ إنسانيٌّ، ليُوسّعَ الملفوظُ النصّيُ الثاني والثالث والخامس من محيط دائرة هذا الإطار، ليشمل الأمير عبد القادر الأسير المنفيَّ المظلوم، والعلاقة الوطيدة التي ستجمعهُ بالقسِّ الذي سيقومُ بهذه الوظيفة التحريرية، وهي مهمة اختصَّ بها، لتُصبحَ ملازمةً لهُ، ومُجَسَّدةً في الملفوظ النصّي الرابع، باعتباره رسالة نصيّة مُرسلة إلى لويس نابليون بونابرت الثالث إمبراطور الجمهورية الفرنسية تترجاه العفو عن الأمير، أما باقي الملفوظات: الخامس، السادس، السابع، الثامن،

التاسع، العاشر تُتَمِّمُ الملفوظات السابقة من حيث تحديد المهمة، ومن يقوم بها ومن يحاول تقويضها، والمؤشّرُ الوصفي الخامس يتصلُ بموضوعهِ، بوصفه فردا موجودا قائمَ الذات: الأمير عبد القادر الجزائري.

- **صفاتُ المؤشرات:** الأول والثاني والثالث والسادس والعاشر: نجد ضمير المتكلم المُوظّفِ فيها، الذي يُحيلُ إلى موضوعٍ مزدوجٍ: أسْرُ الأميرِ / السَّعي إلى تحريرِ الأميرِ.

- **خصائصُ المؤشراتِ الطابعية:**

- **الأميرُ عبد القادر بن محي الدين الحسني الجزائري:** مُؤسِّسُ الدولةِ الجزائرية الحديثة / رجلُ دين / مقاومٌ وسياسي / ثارَ ضدَّ المُستعمر الفرنسي وكافحهُ، تمّتْ مُبايعته كخليفة للمؤمنين في: 20 نوفمبر 1832، يقول **الكابتن دو سانت هيبوليت** عنه: «الأمير رجل مدهشٌ، هو في وضعية أخلاقية لا نعرفها جيّدًا في أوروبا، رجل زاهد في شؤون الدنيا ويظنُّ أنّه موكَّلٌ من طرف الله بمهمة حماية رعاياه، حلمه ليس الحصول على مجد والهدف الشخصي ليس من مهامه وحبُّ المال لا يعنيه أبدا، ليس ملتصقا بالأرض إلاّ وفق ما يُمليه عليه الله، فهو أدَاتُه»[13].

- **القِسُ أنطوان أدولف ديبوش:** أُسقُفُ الجزائرِ الأسبقِ، مثّلَ هنا في النصّ أنموذجَ الآخرِ الخَيّرِ، يقول عنه خادمه: «مونسينيور ديبوش كان يحبّ الماء والصفاء والنور والسكينة، على الرغم من الظروف القاسية التي لم تمنحهُ إلاّ المنفى والجري وراء سعادة الآخرين، حتى نسي نفسه، لقد منح كل شيء للدنيا، ونسي أنه هو كذلك كائن بشري في حاجة لمن يأخذه من الكتف بشوق ومحبة، ويُحسّسه بوجوده» [14].

- **الخادم جون مويي:** رفيق القسِّ مونسينيور ديبوش وخادمُهُ ومستودع سرّهِ وسارد الأحداث والوقائع.

- **شارل لويس نابليون بونابرت الثالث:** رئيسُ الجمهوريةِ الفرنسيةِ (1848 – 1852)، إمبراطورُ فرنسا (1852 – 1870)، يُؤشّرُ كحاكمٍ فردٍ على سلطةٍ سياسية ومعرفية.

- **الجزائر:** حين عقدَ الأميرُ عبد القادرِ هدنةً مع السلطةِ الفرنسيةِ (اتفاقية سلام مع القائد العسكري الفرنسي دوميشال في: 24 فيفري 1834 قبل أن تُقوَّض، ثم معاهدة تافنة مع الجنرال بيجو في: 30 ماي 1837)، اعترفت فرنسا بدولته وسيادته، ليَنْصَبَّ معهُ اهتمامهُ على محاولة تنظيم أحوالِ البلادِ ومراعاة شؤونها بتعميرها وتطويرها، لينجح كثيرا في مسعاه التنموي رغم العراقيل التي اعترضته.

- **فرنسا:** سلطةٌ استعمارية ذاتُ نظامٍ جمهوري بعد الإطاحةِ بالملكية، احتلّتِ الجزائرَ عام 1830، ميزتها أنها: «دولة قوية ... جيشها نظامي ومنضبط جدّا، ويملك وسائل تدميرية كبيرة»[15].

هذه المميّزات الذاتية عبارة عن خواصٍ مُقوِّمة لهذه المؤشرات التي تساعد على معرفة الموضوعات التي تُحيلُ إليها، لأنّ كلَّ مؤشّرٍ يمثّلُ كيانَهُ الدليلي بدقّةٍ، ويعملُ على إحداثِ الاتصالِ بين الأفراد: **(الأمير / القس / السلطة العسكرية والسياسية الفرنسية)**، موضوعها: **حالةُ الأسْرِ / العملُ على فكِّ الأسْرِ**.

فالأسر يُؤشّر على حالة فردية: (نفي الأمير عبد القادر وسجنه) وجماعية (الأسرى الجزائريين لدى الجيش الفرنسي)، من صفاتها: سلبُ حُريةِ الإنسانِ، لتتحدّد أدوارُ هذه المؤشرات على مسرح الأحداث تباعا عند الانتقال من الكيفية: (حالة الأسرى الجزائريين في السجون الفرنسية / حالة الأسرى الفرنسيين لدى الأمير)، وصولا إلى تعيين وقائع الدلائلِ: «... ثُمّ رآه وهو يُقاوم دمعته المنكسرة، ويكتب باستماتة رسالته إلى الأمير يُناشده فيها إطلاق سراح زوج المرأة التي جاءته في ليلة عاصفة تطلب منه أن يتدخل لإنقاذ زوجها»[16] / «ما سمعته عن هذا الأمير يؤهله لرتبة قائد وليس حراميا، ولا أعتقد أنه سيقتل زوجك ما دام سجينا لديه، الذين هربوا أو الذين أطلق سراحهم يؤكدون على قوام أخلاقه العالية»[17]، ليتحقّقَ صِدقُ عملية تحويلِ عالمِ الأسْرِ ومواصفاته وأفراده من حال الكيف إلى حال الحدث الفعلي، عبر توسُّطِ الفعلِ الإقناعي التحويلي (توسُّطُ قوانين تعاقدية / إقناعية): «سيدي السلطان ... أنت لا تعرفني، ولكني رجلٌ مؤمنٌ متفان في خدمة الله مثلك تماما ... وسأقف عند مدخل خيمتك وأقول لك بصوت لن يخيب إذا كان ظني فيك صادقا: أعد لي أخي الذي وقع أسيرا بين أيديكم ... »[18] / «مونسينيور أنطوان أدولف ديبوش ... لقد بلغني مكتوبك وفهمت القصد، ولم يفاجئني مطلقا في سخائه وطيبته لما سمعته عنكم، ومع ذلك أعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما لله وصديقا للإنسان: كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيّين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة التافنة، وليس سجينا واحدا كائنا من يكون، وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مسّ كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم، أحب لأخيك ما تحب لنفسك ...»[19] / «امتلأت عيناه بالدموع [يقصد القس]، رأى سجن قلعة القصبة الذي امتلأ بالسجناء العرب المكدسين رجالا ونساء، شبه عراة، تتسلق على صدورهم كائنات صغيرة مثل الدود المرتخي ...»[20]، لتتحدّد أدوارُ هذه المؤشرات على مسرح الأحداث عند الانتقال من الكيفية (حالةُ الأسرِ)، إلى تعيين وقائع الدلائل وصيرورة التجربة.

نلحظ هنا توظيفا غزيرًا لدلائلٍ وصفيةٍ داخلَ الأمكنةِ والوضعياتِ، التي شهدتْ عمليةَ التحويلِ: إقرارُ حالةٍ / مُثيرٌ واستجابةٌ / عمليةُ التحامٍ بالتجربةِ مباشرةً / أفعالٌ وردودُ أفعالٍ / تفاوضٌ وأقوالٌ.

هذه الدلائلُ الوصفية تتحدّدُ كتجربة فعلية، داخل سياقٍ دينامي، مُمهّدٍ للسياقاتِ المحلية الأساسيةِ:

– **عزلُ الأميرِ عبد القادر**: تتصلُ كيفية العزلِ بمعيار البُعدِ (النفي من الجزائر والسجن في: قلعة بو، قصر أمبواز / باريس)؛ لأن طبيعة المكان: **(تولون / بو / قلعة أمبواز)** المُحصّنة والمنيعة تُعتبرُ المكانَ الأمثلَ لسَجنِ كبارِ الأسْرى المقاومين كالأمير، تجنبًا لوقوعِ فعلِ الهروبِ: «عند مدخل قصر هنري الرابع في بو

Pau أو القلعة كما يسميها الأمير وبعض أصدقائه، رأى مونسينيور ديبوش الكولونيل أوجين دوما Le colonel Eugène Daumas باستقامته المعهودة ... عندما تجاوز العتبة رأى صفاء خاصًا يشبه صفاء الإنسان المقهور والمنكسر، انتابه إحساس يشبه الإحساس الذي يخترق صمت الميت وهو يرتعش في مواجهة شيء حتمي لا سلطان له عليه [السجن والنفي]»[21].

فعلى صعيدِ التعبير الأولِ: نجدُه يستعيرُ عديدَ الدلائلِ الأيقونية الواصفة لحالة السجن وظروفه (قصر أمبواز): «شعرَ مونسينيور ديبوش بامتعاض كبير قبل أن يدخل إلى الدهليز الضيّق المؤدّي إلى الحُجرات التي يُحتجزُ فيها الأمير وعائلته، الحجرات مليئة برائحة الرطوبة والعفن الذي يشبه الرائحة التي تُخلّفها الفئران عندما تَعبُر مكانا، تاركةً وراءها شَعرها ورائحةَ بولها القوية التي تجرحُ خياشيم الأنفِ بحدّة»[22]، فتوالي كيفيات: الامتعاضِ / الحجزِ / الرطوبةِ / العفنِ، تُعبّرُ عن حالةِ الأسرِ.

1-3- الأسرُ كمؤشّرٍ كيفي:

عمليةُ الالتحامِ بالتجربةِ الفعليةِ في صيغتها المباشرة، تمَّتْ بالانتقالِ من وضعِ الاعتقادِ والشكِّ، بمحاولةِ جعلِ "القس مونسينيور ديبوش" يتوسّطُ لدى الأمير، بعدما جاءته زوجةُ الضابط الفرنسي "ماسو" "Massot" الأسير، تترجاهُ التدخلَ لتحريرِه: «نعم يا مونسينيور أنا زوجة ماسو نائب المتصرف المالي العسكري الذي سجن بالقرب من الدويرة، إنّي خائفة على حياته من عناد "بوجو" "Bugeaud"، الذي رفض أي حوار مع عبد القادر، فهو سجين لدى العرب، وأخشى أن يُقتَلَ زوجي وهو لم ير ابنته التي وُلدت بعده، زوجي لم يكن محاربا، فهو مجرد متصرّف مالي، جئتُ نحو الله؛ لأنّ كلّ سبل البشر انسدّت في وجهي»[23]، ليُراسلَهُ القسُّ برسالة مطلعُهَا: «سيدي السلطان ... أنت لا تعرفني، ولكني رجل مؤمن متفان في خدمة الله مثلك تماما ... وسأقف عند مدخل خيمتك وأقول لك بصوت لن يخيب إذا كان ظني فيك صادقا: أعِد لي أخي الذي وقع أسيرا بين أيديكم ...»[24]، ليأتيه الردُّ سريعًا: «مونسينيور أنطوان أدولف ديبوش ... لقد بلغني مكتوبك وفهمت القصد، ولم يفاجئني مطلقا في سخائه وطيبته لما سمعته عنكم، ومع ذلك أعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما لله وصديقا للإنسان: كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيّين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة التافنة، وليس سجينا واحدا كائنا من يكون، وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مسّ كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم، أحب لأخيك ما تحب لنفسك ...»[25]، وصولا عند وضعِ القناعةِ واليقينِ (تسخير ما بقي من حياته للدفاع عن الأمير عبد القادر): «أرأيت ماذا فعل هذا الرجلُ من أجل الجميع؟ يجب أن يخرج من هذا السجن المفروض عليه في هذا القصر المُفرغ من كلّ حياة»[26].

على صعيد التعبيرات النصّية السابقة التي جسّدها التواصل التداولي، نجدُ القولَ قد استعارَ عديدَ الدلائلِ الواصفةِ لحالةِ الأسرِ: سجينٌ لدى العربِ / يخرجُ من هذا السجنِ / هذا القصرُ المُفرغِ من كلّ حياةٍ

/ إطلاقُ سراحِ كُلّ المساجين المسيحيّين / حبسناهُم منذ عودةِ الحربِ / فسخُ معاهدةِ التافنة / ليس سجينًا واحدًا / السجناءُ المُسلمون الذين ينطفئون في سجونكُمْ.

1-4- تنازعُ التمثيلِ الدبلوماسي* (بينَ الشكِّ والاعتقادِ):

يُشارُ في هذا النصّ إلى تداخُلٍ تأويلي، ارتبطَ بلحظاتِ شكٍّ واعتقادٍ، يُمكن صياغتها في تنازع التمثيلِ الدبلوماسي وتبايُنه: «منذ يومين ورسول الماريشال فالي، دو صال De Salles ينتظرُ ملاقاة الأمير للمرة الثانية لتدارس وثيقة معاهدة تافنة، وتزكية توقيع خليفته ابن عراش الذي فتح أمام الفرنسيين الطريق نحو قسنطينة بدون استشارة الأمير»[27] ***السارد*** / «أنا وقّعتُ على اتفاقية ولن أقبل بالتوقيع على الحواشي التي تعطي للفرنسيين حقّ العبور نحو قسنطينة»[28] ***الأمير*** / «يبدو أنّ الأمر ليس بسيطا، فقد تدخل أناس كثيرون في الوثيقة والآراء متضاربة، ويرفضون من الأمير أن يوقّع، ويفضّلون سيوفَ الحربِ، بينما هو كما تعرفه يجنحُ دائما نحو السِّلم»[29] ***الميلود بن عرّاش*** / «ما تريدهُ فرنسا بسيط، الموافقة النهائية على ملحق المعاهدة الذي يُدقّقُ الاتفاقية، لتفادي التأويلات وبالتالي تفادي الحروب المجانية»[30] ***المبعوث الفرنسي دو صال***، وما زاد في تقوية هذا الشكِّ إصرارُ السلطاتِ الفرنسية (الماريشال فالي) على ضرورة قَبولِ الوثيقة المرفقة للهدنة المُوقّعة دون علمِ الأمير عبد القادر.

1-4-1- صيغةُ إرادةِ المعرفةِ والحيلةِ:

تحملُ هذه الصيغةُ عديدَ المعاني النفعية (Pragmatique)، خاصة بعدما تيقّن الأمير عبدُ القادر أنَّ السلطات الفرنسية (العسكرية / السياسية) تُضمرُ نوايا خبيثة، ما أدى بهذه الوضعية إلى نقضِ بنودِ الهدنة المُبرمة بينهما: «نقبلُ بالهدنة، ولكن أيّة هدنةٍ؟ إلى متى سنظلّ نتحمّلُ شتائم النصرانيين واستفزازاتهم؟ لقد أعطونا كلّ الأدلة التي تثبت عدم احترامهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم ... لا نقبل بالتهديدات كيفما كانت، واضحة أو مبطّنة ولو كان الفرنسيّون يريدون حقيقة سلما لما اخترقوا ما وافقوا عليه»[31] ***الأمير***، وهذا الاستقراء الاستنباطي الظاهر للوقائع، بمُخالفتها الصريحةِ من قِبلِ السلطات الفرنسية بخرقِ بنودها وشروطِها، ما جعلَ فرضيةَ استدلالِ الأميرِ عبد القادر المعرفية صحيحةً (خرقُ الهدنةِ وإعلانُ الجهادِ).

ومنه فصور الاستدلال هنا تأسَّستْ على: مقولةِ تنازعِ التمثيلِ الدبلوماسي وعلى صيغة إرادة المعرفة والحيلة، مُشكّلةً في مجموعها لبعدٍ تأويلي لبِنْيتي: الشّك والاعتقاد.

1-4-2- العقدُ* كسَننٍ دلالي:

سنحاولُ تحليلَ صيغة العقدِ (المعاهدةُ / الاتفاقيةُ) في نصّ: كتابِ الأميرِ، انطلاقًا من المفاهيمِ الآتيةِ:

- **السياق الإبستيمولوجي:** يُعنى به جُملةُ المعلومات والإرشادات والتعليمات المتصلة ببنودِ إبرام عقدِ الهدنة**، المُعبّرِ عن دلائلِ: قانونية / عُرفية والمُؤسّس على تفاوضٍ يتّصلُ بمسائلٍ عامة أو جزئية بين كيانين: جزائريّ، مُمثّلاً في الأمير عبد القادر، وفرنسيّ، ممثَّلاً في السلطات العسكرية والهيئة

السياسية الفرنسية، فالعقدُ قانُونًا: "اتفاقٌ يلتزمُ بمقتضاه شخصٌ أو عدّة أشخاصٍ تجاه شخصٍ أو عدّة أشخاصٍ بتقديم شيء ما، بالقيام أو بعدم القيام بشيء ما"[32]، أمّا العقدُ فلسفيا على نحو خاصٌ "يُقالُ: عقدَ على ما يكونُ ثنائي الطرفِ أو مُتعدّدَ الطرفِ؛ أي ما يتضمن التزامات أو تعهّدات مُتبادلة"[33].

- **الأهليةُ اللسانيةُ الدبلوماسيةُ:** يُقصدُ بها جُملةُ القُدراتِ اللسانية الإقناعية المُتصلة بالمُشاركين في العملية التعاقدية: (الاتفاقُ على بنودِ الهدنة المُوقّعة بين الطرفين)؛ إذ على أساسها يتمُّ إدراكُ الوضعِ واستيعابه: «عرف دو صال النتيجة من وجه الأمير وهو بين رجلين مهمين: يهود بن دوران وعمر ليون روش، فقد علاه سواد ودكنة غريبة لم يستطع أن يقاومها، كان مرتبكا في كلامه ولكن رزينًا في مخارج الحروف، يتكلّمُ بهدوءٍ كبيرٍ»[34].

- **المُحتوى السيميي:** يُقصدُ بهِ جُملةُ المعلوماتِ الإجرائيةِ الدالةِ على الحَقلِ السِيمِي، المُتّصل بظروفِ وشروطِ العقدِ.

الملاحظُ على المفاهيمِ الثلاثةِ: **(السياق الإبستيمولوجي / الأهلية اللسانية الدبلوماسية / المُحتوى السيمي)** أنها ليست مفاهيم جامدة، بل هي متحولة تتحكّم في تشكُّلها الظروف والشروطُ المحيطة بالعقدِ: (الاشتغالُ بالوظيفةِ الإقناعية)؛ لأنه ينُصُّ على عقدِ: **الصُلحِ / الهُدنة** ، فـ"الصُلحُ عقد بمقتضاه يحسم الطرفان نزاعا قائما أو يتوقعان قيامهُ، وذلك بتنازل كلّ منهما للآخر عن جزء مما يدّعيه لنفسه"[35]، كذلك "الصُلح عند أربابِ السياسة رفعُ الحربِ على شروطٍ معيّنة تُعرفُ بشروطِ الصُلحِ"[36]، ومصطلحُ: صُلْحٍ مُشتقّ من المصالحة بمعنى السِّلم، وشرعا: عقدٌ يُقصدُ به رفعُ النزاعِ، في حين الهُدنةُ "عند أربابِ السياسة توقيفُ الحربِ إلى حينٍ بأمرِ الولاةِ، لأجْلِ عقدِ شروطِ الصُلحِ أو مقصدٍ آخرٍ"[37]، لذا فالصلحُ والهدنةُ ينضويانِ تحت صيغةِ العقدِ، بما يضمنُ ذلكَ مِن توثيقِ الأحكامِ وضبطِ الكلامِ (الدبلوماسيةُ والتحكّمُ في الأعصابِ) عند إبرامِ العقدِ (اتفاقية الهدنة) بين الأفرادِ، شرطَ توافرِ الروابطِ المادية من: إيجابٍ وقبولٍ يضمنُ نجاحَ العقدِ، لتحقيقِ الفعلِ الدلاليِّ النَّاجمِ عن الوضعِ التعاقدي:

- **عقدُ الأميرِ لاتفاقية هدنة مع الجنرال دوميشال:**

- «في حدود 1833 أو بعدها بقليل عقد دوميشال معاهدة مع الأمير أخطأ أم أصاب فذاك أمر يتجاوزني، في بداية مشواره العسكري المدهش، وكانت بمثابة أوّل هدنة وبداية سلام، ولست مخولا كما لا يخفى عليكم للحكم عليها من أي جهة من الجهات ... »[38] ***القس ديبوش*** / «وقعنا على معاهدة وسنحترمها، المهم أنّ دوميشال ما يزال على عهده، وأعتقد أنها رجولة كبيرة من طرفه»[39] ***الأمير*** / «القادة الحقيقيّون يُعرفون في الأزمات الكبرى وليس في حالات السلم ودوميشال قائد كبير، أحرق المحاصيل وسجن سكان الغرابة ولكنّه لم يخن أخلاق القائد منذ أن وقّعَ الاتفاقية

معنا»[40] ***السي مصطفى بن التهامي مستشار الأمير والمكلف بالعلاقات الدبلوماسية*** / «المعاهدة خطوة نحو البناء، ويجب أن نلتزم بها، لقد أقنعت الفرنسيين بضرورة الاستماتة في الدفاع عن الاتفاقية بكل الوسائل، ويجبُ أن نقوم بالشيء نفسه»[41] ***الأمير*** / «يجب أن ندافع عن اتفاق الهدنة بكل الوسائل، من مصلحة بلادنا وتجارتنا، الاتفاق يعطينا حقّ السيادة على جزء كبير من البايلك الوهراني، وحقّ الإشراف على حركة السفن والتجارة في مرسى آرزيو، رجالنا يتحكّمون في حركة تجارة القمح وغيرها، نحن من يُموِّنُ أسواق وهران وإلاّ سيموت سكان المدينة جوعا أرسلنا باخرة L´Assomption مملوءة بالقمح من آرزيو إلى جبل طارق في 21 أفريل لصالح اعمر وشركائه، ورجعت مدججة بالبنادق والبارود الرفيع و600 كيس من الكبريت، أعتقد أنّ كُلّ شيء يسير على ما يرام»[42] ***ابن دوران*** / «الناس بأفعالهم، يبدو أنّ الجنرال دوميشال صادق في معاهدته، فقد أطلق سراح محبوسيه كما وعدنا أعاد مسجد الباشا إلى المسلمين، سرّحَ سجناء بوابيي بمرسى الكبير وسكان الغرابة الذين غزاهم في نومهم وردّ بعض أموالهم وأغنامهم أليست هذه دلائل كافية للثقة فيه»[43] ***الأمير*** / «أؤكّد لك اليوم أنّه لا توجد إلاّ نسخة واحدة هي تلك التي وقّعنا عليها جميعا وعملت على تطبيقها حرفيا، ولم أخرج أبدا عما تمّ الاتفاق عليه، أعرف أنّ الجنرال دوميشال كانت له ظروفه الخاصة ولكنها تخُصّه ولا تخُصُّني، الاتفاقية محفوظة ويمكن الاطلاع عليها وموقّعة من الطرفين»[44] ***الأمير***.

- **عقدُ الأميرِ عبد القادر لاتفاقية هدنة مع الجنرال بيجو:**

«أعتقد أنّنا في حاجة إلى لغة أخرى في مجال السياسة [غير لغة الحرب]»[45] ***الأمير*** / «الكثير من الضحايا كان يمكن أن يسلموا من موت الحروب الخاسرة لو قُبلت الهدنة مع بيجو منذ البداية، فقد التقى مع ابن دوران واقترح عليه بدأ المفاوضات في رسالتك المُوجّهة له»[46] ***الأمير*** / «إنسانيتي تجاه العرب وتجاه جنودي تُحتّمُ عليّ أن أقترح عليكم السلم قبل الحرب، السياسة تجبرني على فعل ذلك، مثلها مثل الإنسانية لأنك إذا رفضت السلم الذي أمنحه لك ستتحمل مسؤولية الحرب ونتائجها المدمرة، هذا تهديد غير مقبول أبدا، ثمّ إنّ الاتفاقية تراجعت حتى على ما حققناه مع دوميشال الذي وقعته فرنسا ونكثته بنفسها، مقترحات بيجو الأولى التي بعثها في 15 أفريل كانت ضعيفة، وكان عليه أن يغيّر نقاطه فيستقرّ على النقاط السبع التي بعث بها إلى وزير الحرب والتي يطالبه فيها بالموافقة عليها بسرعة»[47] ***الأمير*** / «الحرب تدبير، ومن هنا أفهم بيجو جيّدا، فقد كانت تسيطر عليه عقلية المزارع أكثر من عقلية العسكري، كان يريد ما يشتهي وهذا ليس معاهدة، المعاهدة

طرفان وأخذ وعطاء، هذه هي السياسة، كان يريد أن يحسم كل شيء قبل بدء الحرب»[48] ***الأمير*** / «بعد نقاش دام برهة من الزمن، بدأت مراسم التوقيع، سأل الأمير بيجو:

–أُمنيتي أن تستمرّ هذه الاتفاقية، وأن لا يكون حظُّها مثل حظّ الاتفاقيات السابقة. **[الأمير عبد القادر]**

–أنا كفيل عند ملك فرنسا بضمان تطبيق الاتفاقية.**[الجنرال بيجو]**

–وأنا ديني يحتّمُ عليّ احترام وعودي، القبائلُ التي تحت وصايتي مجبرة على اتّباعي. **[الأمير عبد القادر]**

–تزكية الملك لا تتجاوز الثلاثة أسابيع، ولهذا فهي صالحة وأستطيع باسمها أن نختم هذا الاتفاق بشكل نهائي، ولهذا أسألك إذا كنت قد فتحت ممرات العاصمة وضواحيها كما ورد في الاتفاق. **[الجنرال بيجو]**

–تُفتحُ عندما تعيدون إليَّ تلمسان، هذا كذلك جزء من الاتفاق، كُلّها ترتيبات تأتي لاحقا ولا تكلّفنا إلاّ أوامر نصدرها للخلفاء الذين ينتظرون بفارغ الصبر تحقيق هذا الاتفاق. **[الأمير عبد القادر]**

–يُستحسنُ إذن أن ندقّق البنود بندًا بندًا، ونضع الخواتم ونسعى بعدها لتزكيتها من طرف ملك فرنسا، لتصبح سارية المفعول على الكُل [الجنرال بيجو]»[49] / ***الأمير عبد القادر والجنرال بيجو***.

ينبغي أن نُشيرَ إلى أنَّ الأميرَ عبد القادر قد قامَ بعقدِ هُدنتين: الأولى مع الجنرال دوميشال والثانية مع الجنرال بيجو (إبرامُ عقدِ الهُدنة / فشلُ / إفشالُ عقدِ الهُدنة / تجديدُ عقدِ الهُدنة / فشلُ / إفشالُ عقدِ الهُدنةِ، ثمّ توقيعُ معاهدةِ الاستسلامِ).

فالأمير عبد القادر أوْلَى كفاءةً دبلوماسية / لسانية حين اختار ممثّليه: يهود بن دوران / الآغا خليفة بن محمود / السي مصطفى بن التهامي / عمر ليون روش عند عقد اتفاقيتي الهدنة (معاهدة دوميشال / معاهدة تافنة)، وطريقةُ صوغِها وقوةُ التأثيرِ فيها (قوةُ الفعلِ الكلامي)، فعند توقيع بنودِ اتفاقيةِ الهدنة مع الجنرال دوميشال، تمَّ تجاهُلُ وثيقة مُرفقة أساسية من قبل السلطات الفرنسية التي أنكرت بدورها وجودها أو توقيعها أصلاً، والسببُ: محاولةُ تقويضِ الهدنةِ المُبرمة مع الأمير أو دفعهُ لتقويضِها: «أحيانا أشعر أنّ دوميشال كان ضحية لعبة أكبر منه ومني، دوميشال أكّد بنفسه أنّهُ في 20 فبراير تعمّق مليًّا في الوثيقة الملحقة بعد أن قدّم له بن عراش كلّ وثائق الاتفاق الأصلية، وكان ذلك بحضور المترجم السوري وابن دوران وكيلي في الجزائر ومساعده الكابتن لاقوندي Lagondie والسو ليوتنان آليقرو Le sous–Lieutenant Allegro ووضع عليها ختمهُ، هذه الوثيقة الملحقة تم تدميرها أو ضاعت الله أعلم»[50] ***الأمير***، ما جعل بنود الهدنة قابلة للتأويلِ والاحتمالِ المادّي وهو ما حصلَ بالفعلِ: «يقولون إنّك اخترقت القواعد المُتفق عليها، خرجت عن حدود القطاع الوهراني، وسرت باتجاه حدود التيطري، وهذا يقع خارج

حدود الاتفاق، نكثت المعاهدة، بشكل أكثر اختصارا»[51] ***القس*** / «الأمر بسيط جدا اطّلعوا على التقسيمات التي قامت بها فرنسا وسترون أنّ هذه المنطقة تابعة للقطاع الوهراني، لم أتجاوز أبدا حدودي، العسكريون كانوا على علم بكلّ تحركاتي، ومرسى آرزيو لنا حقّ الاتجار فيه بمقتضى المعاهدة، ولي ممثلون في المرسى كما لدوميشال كذلك، لكنّ رجالات الحرب والتوسع كانوا الأقوى وذاك قدَرُ اللهِ عزّ وجلّ، ماذا تستطيع أن تقول عندما تكون كلمة البارود هي المسموعة»[52] ***الأمير*** / «هذه الأخبار بقدرِ ما أفرحت الأمير أكّدت له أنّ المعاهدة انتهت وأنّ الحرب بدأت تلوح في الأفق»[53] ***السارد***، هذا الإنكارُ مسَّ بنودَ الاتفاقيةِ وأخرجهُ إلى وجهٍ تأويلي مُخالفٍ للوجهِ التأويلي الذي وُضعَ لهُ أصلاً، مع تعيين الجنرال تريزيل عام 1835 مكان الجنرال دوميشال المعزول (الحكومة الفرنسية لم يعجبها أمر الاتفاقية المُبرمة واعتبرتها عملاً شخصيا معزولاً)، ومُواجهته لعديد الثورات الداخلية: ثورة موسى بن الحسين الذي قام بالهجوم على مدينة المدية قبلَ أن يتصدى له الأمير عبد القادر ويُحرّرها، وإعلانُ بعضِ المناطقِ كالزمالة التمرُّدَ، مُنفصلةً عن إمارته ومُعلنةً ولاءها للفرنسيين، ما فجّر غضبَ الأمير بصفته جنحَ إلى السِّلمِ ونَبذَ الحربَ، مُعتبرا إياها نقضا للمعاهدة: «يا السي مصطفى، الحرب مع تريزل كسرت القشة التي ارتبطت بها للحفاظ على السلم، الناس لا يعرفون شيئا آخر غير الحربِ والغنائمِ»[54] ***الأمير***، وهكذا يكون التنكُّر لبنود الاتفاقية وصياغة العقود قد أثَّر سلبًا على الأمير عبد القادر –رغم أنها تُعتبر أوّلَ نصرٍ له على الصعيدين: الدبلوماسي والعسكري، كون بنودها تعترفُ بسيادته ومكانتُه الدولية كقائد عسكري– مُمتدا هذا التأثير إلى الوجود الفردي للشخص (الأمير عبد القادر بصفته الطرف الأساس في المعاهدة) وإلى مكانته في السلطة التي يمثّلها (خليفةٌ للمؤمنين مُبايَعٌ)، ما دفع به إلى إعلان الجهادِ وبداية الحربِ: «أعرفُ أنّ الحرب ستطحنُنا جميعا ولكنها ستأكل أعزَّ أبنائهم وخيرة قادتهم هم كذلك، مع ذلك لا أريد أن يقال عنّي بأنّي تركت ناسي يموتون ونجوت بجلدي أو أنّي لم أقاوم حتى النهاية، ما يزال هناك مُتّسعٌ للمقاومة والقتال الذي فُرض علينا ولم نذهب نحوه»[55] ***الأمير***، فهذا السياق المعرفي لعقد الصلح والمهادنة وتجديده يمُدّنا بمعلومات عن وقائعٍ مباشرة، على أساسها أصبحَ التفكيرُ في فسخ بنودها جِدِّيًا لا رجعة فيه: «كانت الحرب قد بدأت ولا أحد كان يعرف كيف ستكون النهاية ... كان الأمير قد اختار مرتفعات بني صالح لتسيير هذه الحرب، التي ناصرتها القبائلُ، وانصاع لها الجميع»[56].

- **وقائعُ الحربِ:**

تتلخّصُ هذه الوقائعُ في:

–نقضِ بنود اتفاقيةِ الهدنةِ، بعد رفضِ مُلحق اتفاقية 04 جويلية، المُمضَى من قبلِ الميلود بن عراش خليفة الأمير دون إعلامه: «أشعر بالمرارة والخيبة، أنت تعرف ماذا تعني الكلمة بالنسبة لي [يقصدُ خليفته ابن عراش]، أنا وقّعتُ على اتفاقية، ولن أقبلَ بالتوقيع على الحواشي، التي تُعطي للفرنسيين حقّ العبور

نحو قسنطينة، أرفض هذا الممرّ الذي يجعلنا باستمرار تحت رحمتهم، بعد أن لم يكن أمامهم ووراءهم إلاّ البحر وجبال الأطلس، هذا ما نسميه لوي الذراع عندنا»[57] ***الأمير*** / «اتفاقية التافنة؟ قال الأمير، لا أتصوّرُ أنّ عمرها سيطولُ، حبذا لو طال لكن ما تتمناه النفس غير ما تراه العين ويحسُّه القلبُ»[58] ***الأمير***.

–**التشكيك في نوايا السلطات الفرنسية، التي جنحت للحربِ على حسابِ السِّلمِ:** «من قال لك إنّهم سيتركون لنا الوقت لبناء دولتنا، كلّ شيء يوحي بأننا نتّجهُ نحو حرب شاملة، المُتغيّرات في باريس ليست في صالح السّلم»[59] ***الأمير***.

–**اجتماعُ مجلس شُورى الأعيان، وإعلانُ الجهادِ:** «ليكن، تريدون الجهاد ولا شيء غيره، ما دامت هذه هي إرادتكم أنحني أمام القرارات التي اتخذتموها جماعيّا، ولا يمكن أن أشُذَّ عن الجماعة، ولكن يجبُ أن تعرفوا قسوة هذا الخيار والصعوبات التي سنعانيها والخسارات التي ستدفعكم إلى النكران، أدعوكم أن تعاهدوني أمام الله، وأن تقسموا على الكتاب، بأنّكم لن تخدعوني، ولن تتركوا الجهاد، وكلّ من تركه أعتُبر في عداد الكافرين»[60] ***الأمير***.

–**بيانُ إعلانِ الحربِ:** « ... لقد كنت وفيّا معكم لكل التعهدات التي قطعتها على نفسي، وأخبرتكم بكل التحولات وها أنا ذا أفعل صادقا، أعيدوا قنصلي في وهران لعائلته واستعدوا للجهاد المُعلن ضدكم؛ إذ لا يمكنكم من الآن اتهامي بالخديعة وخيانة العهد»[61] ***الأمير***.

كُلّ هذه الوقائع تُدخلنا مباشرة في الإشكالِ المطروحِ سابقا، كونها تطرحُ بطريقة ضمنية / صريحة عديدَ الأسئلة: عن معنى العقد؟ ومعنى الصلح؟ ومعنى الهدنة؟ وشروطها، هذه العناصر الثلاثة هنا تُمثّلُ سريانَ التواصلِ الفعليِّ للأشياءِ، المرتبط بكيانين سياسيين: جزائري (الأميرُ عبد القادر) / فرنسي (السلطةُ العسكرية والسياسية).

فمؤشراتُ الملفوظاتِ النصّية أعلاه كأقوالٍ، تعتبرُ واضحةً وجليةً، سواءٌ في جانبِ: الاتفاقِ على عقدِ بنودِ الهُدنة (شروطُه)، أو في جانبِ: نقضِ بنود اتفاقية الهُدنة (أسبابُه)، ليُثبتَ السياقُ السيمي محتوى بنود الاتفاقية، وبعض شروطه، والمكان الذي أُبرمت فيه، والأحداث المُترتبة عليه بعد نقضِهِ كونها ستكون قضيةً شرطيّةً محلّ نزاعٍ تأويلي: طرفٌ يُقرُّ بوجودِها / طرفٌ يُنكرُ وجُودَها (كقضية الوثيقة المُرفقة التي أنكرها الأميرُ، وأكّدتها السلطاتُ الفرنسية)، لتصبح سيرورة الواقعةِ معه تميلُ إلى تأكيدِ التأويلِ، برغبةٍ ثنائيةٍ ظاهريا مشتركة، وضمنيا مُتباينة، لإنهاء الواقعة الخِلافية، وإتمام الاتفاقية وفق الشروط الفرنسية المُضافة، لتحقيق محتوى الشروط على الأرض: (مُلحق الاتفاقية يُقيّدُ الأميرَ ويعطي الطرفَ الفرنسي صلاحيات أكثر).

فالتنازُع في التأويلِ هُنا مردُّه التساؤلُ عن وجودِ / عدمِ وجودِ وثيقة مرفقة لاتفاقيةِ الهُدنة المُبرمة، ومردُّه كذلك سوءُ النوايا من قبلِ السلطات العسكرية / السياسية الفرنسية، وغيابُ التنسيقِ المُحكمِ بين الأمير عبد القادر وخليفته الميلود بن عراش، الذي اتّخذَ قراراتٍ فردية كانت نتائجُها وخيمة على عقدِ الاتفاقية، ما

صعّبَ عملية الفهمَ بينهما: (كان يمكنُ أن يتيسّر الفهم بين الأمير والسلطات الفرنسية لو كان السَننُ بعيدا عن كُلّ أحوال اللُّبسِ والغموضِ المؤدي إلى سوءِ التأويل: حُسنُ النيّةِ في إحداثِ القصدِ = الأميرُ عبد القادر / الميلود بن عراش، وسوءُ النيةِ في إحداثِ القصدِ = الماريشال ڤالي / الكومندون دو صال).

ليُدرجَ في هذا التأويلِ الشرطي جوابُ الدعوةِ من قبلِ الأمير بالرفضِ القاطع لأيِّ شرطٍ يقتضيه التأويلُ الفرنسي، بما في ذلكَ الاطلاعُ والاكتفاءُ بالعقدِ الأساسي (معاهدةُ تافنة).

ومنه فترتيبُ الملفوظاتِ النّصية (الأقوالُ) السابقة يتّخذُ شكلَ مقدّماتٍ أدّتْ إلى نتيجةٍ منطقيةٍ واحدةٍ، عَبَّرَ عنها التمظهرُ اللّساني "**تقويضُ الهدنةِ**" بين الطرفين: الجزائري / الفرنسي، المُتشاركين في التنازع التأويلي، مما فرضَ إلزاميةَ إيجادِ حلٍّ لهذا الإشكالِ التأويلي، المُتطلِّبِ لتفكيرٍ عميقٍ في الوضعية المطروحة، بمحاولةِ العملِ على قلبِها إلى وضعيةٍ معاكسةٍ لها، لإقصاءِ المحتوى السيمي لملفوظِ النتيجةِ المنطقيةِ: (تصحيحُ الخطأ الذي وقعَ فيهِ ابن عراش وهدّدَ بنسفِ الهدنةِ) / (رفضُ مُلحقِ عقدِ الهدنةِ / فشلُ الهدنةِ / إعلانُ الحربِ).

الخلاصة:

لنصلَ إلى خلاصةٍ مفادها أنّ كلّ عقدٍ مُبرمٍ، هو عبارة عن تأليفٍ واستدلال، بوصفه يقينا أو شكًّا يقبلُ التأويلَ في سيرورتهِ المنطقية داخلَ السردِ، استنادًا إلى السياقات: المعرفية / السيمية، وإلى مضمر وظاهر الكفاءة اللسانية الدبلوماسية، في ظلّ الغيابِ شبه المطلقِ للاتفاق بين الطرفين: الجزائري / الفرنسي بصفتهما مدار الحديثِ الواصفِ (المفاوضاتُ / الهدنةُ / الاستسلامُ / النفي)، ما افترضَ حملَ الكلامِ على عديد المؤولاتِ الدينامية والمنطقية التي أثارتها الدلائلُ المؤصّلةُ لأفعالِ التعاقُدِ في سيرورتها التدلاليةِ، وذلك بالعودةِ إلى فحصِ الأُصولِ الإبرامية لهذه الأفعالِ التعاقديةِ والتعاهديةِ، بين الأمير عبد القادرِ (الجزائر المُستعمَرة)، وقادةُ الجيشِ الفرنسي (فرنسا المُستعمِرة).

نصُّ كتاب الأمير مصدرٌ لتفاعلِ الأدبي المتخيل مع الوثائقي التسجيلي، بقصد استخلاص فلتات تاريخية، توثّق للواقع الذي أُنتجت فيه (المحيط)، فهو مُستعار من الواقع الذي تعيش فيه الذات وتتفاعل معه، لذا فإن ما قام به المبدع واسيني الأعرج هو جعل المادة التاريخية مُحيَّنة، بمنحِها زيّا مُختلفا يُكسبُها راهنيتها، لضمان قراءة موجّهة، وهذا يعتبر من أبرز أهداف التأليف الإبداعي، الذي يعمد إلى تمرير أفكار وملاحظات وهوامش وإحالات، على شكل لمحات سريعة أو برقيات خاطفة، تنهض في توجيه القراءة على نحو يعتقد المبدعُ من خلاله أنه مناسب لاستقبال أفكاره ونيّاتهِ، غير أنّ ذكاءَ القراءِ الذين يدركون مساحات الخفاء، في الأهداف المُسطّرة من قِبل المؤلف، بامتلاكهم لمصدات خاصة في احتواء الأفكار والملاحظات والهوامش والإحالات، المُراد تمريرها بسرّية أو علن.

الهوامش:

1. واسيني الأعرج: كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، 2008، ط2، صفحة الغلاف الأخيرة.
2. المصدر نفسه، صفحة الغلاف الأخيرة.
3. المصدر نفسه، ص 05 .
4. المصدر نفسه، ص 05.
5. المصدر نفسه، ص 21.
6. المصدر نفسه، ص 20.
7. المصدر نفسه، ص 104.
8. المصدر نفسه، ص ص 62 – 63.
9. المصدر نفسه، ص 60.
10. المصدر نفسه، ص 58.
11. المصدر نفسه، ص 40.
12. المصدر نفسه، ص 40.
13. المصدر نفسه، ص 150.
14. المصدر نفسه، ص 12.
15. المصدر نفسه، ص 294.
16. المصدر نفسه، ص 16.
17. المصدر نفسه، ص 54.
18. المصدر نفسه، ص 55.
19. المصدر نفسه، ص 56.
20. المصدر نفسه، ص 56.
21. المصدر نفسه، ص ص 45 – 46 – 47.
22. المصدر نفسه، ص 47.
23. المصدر نفسه، ص 54.
24. المصدر نفسه، ص 55.
25. المصدر نفسه، ص 56.
26. المصدر نفسه، ص 58.

* التمثيلُ الدبلوماسي يعتبر من النُظُمِ الدوليةِ القانونية التي تستمدُ مصدرها الأساسي من العُرفِ الدولي بالإضافةِ إلى ثلاثةِ أُسسٍ أخرى إلى جانبه، وهي المُعاهداتُ، القوانينُ الداخلية، والمحاولاتُ الدولية لتقنينِ القانون الدبلوماسي، ويقصدُ بالعرفِ كمصدرٍ من مصادرِ القانونِ الدبلوماسي مجموعةُ القواعدِ القانونية غير المكتوبةِ التي تنشأ من استمراريةِ سلوكِ الأفرادِ في مسألةٍ معينةٍ على وجهٍ معينٍ، مع إيمانهم في إلزامها وضرورة احترامها، ويعتبر الركنُ المادي والمعنوي الركنان الأساسيان للعرف الدولي: الأول يتمثل في الاعتياد على سلوك معين وهو ما يسمى بالعادة، والثاني يتمثلُ في الشعورِ بإلزامِ هذه العادة التي اضطرَ على إتباعِها. https://ar.wikipedia.org

27. المصدر نفسه، ص 291.
28. المصدر نفسه، ص 292.
29. المصدر نفسه، ص 293.

30. المصدر نفسه، ص 294.
31. المصدر نفسه، ص 295.

* العقدُ في مفهومهِ القانوني هو توافقُ إرادتين أو أكثرَ على إحداثِ أثرٍ قانوني، سواءٌ كان هذا الأثرُ إنشاء التزام أو نقله أو تعديله أو إنهاءه، أو بعبارة أخرى، هو توافقُ إرادتين على إنشاءِ رابطةٍ قانونيةٍ أو تعديلها أو إنهائها. https://ar.wikipedia.org

** الهُدنةُ هي معاهدةٌ تهدفُ إلى وقفِ الأعمالِ العدائيةِ خلالَ الحربِ بينَ الأطرافِ المتنازعة، غيرَ أنَّ الهدنةَ لا تعتبرُ نهايةَ الحربِ، إنما هي فقط وقفُ القتالِ لفترةٍ زمنيةٍ محددةٍ. https://ar.wikipedia.org

32. أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2 ،2001، ص 224.
33. المرجع نفسه، ص 224.
34. واسيني الأعرج: كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد، ص 297.
35. بداوي حجاج محمد: صياغة العقود وفق قانون الالتزامات والعقود، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ج01، ط3، 2001، ص 07.
36. بطرس البستاني: محيط المحيط: قاموس مطوّل للغة العربية مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987، ص 515.
37. المرجع نفسه، ص 933.
38. واسيني الأعرج: كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد، ص 102.
39. المصدر نفسه، ص 117.
40. المصدر نفسه، ص 118.
41. المصدر نفسه، ص 122.
42. المصدر نفسه، ص ص 124 – 125.
43. المصدر نفسه، ص 129.
44. المصدر نفسه، ص 150.
45. المصدر نفسه، ص 206.
46. المصدر نفسه، ص 206.
47. المصدر نفسه، ص 207.
48. المصدر نفسه، ص 207.
49. المصدر نفسه، ص 215.
50. المصدر نفسه، ص 151.
51. المصدر نفسه، ص 152.
52. المصدر نفسه، ص 152.
53. المصدر نفسه، ص 166.
54. المصدر نفسه، ص 167.
55. المصدر نفسه، ص ص 299 – 300.
56. المصدر نفسه، ص ص 300 – 301.

57. المصدر نفسه، ص 292.
58. المصدر نفسه، ص 282.
59. المصدر نفسه، ص 292.
60. المصدر نفسه، ص ص 296 – 297.
61. المصدر نفسه، ص 300.